فكاهات

الكولونيل جيرار[1]

— ١٣ —

ورأى جيرار تبسم سامعيهِ لحديثهِ فقال يلوح لي ايها الاصدقآء انكم تهزأون بي وتظنونني من الذين يتباهون بمديح انفسهم وبئس الظن هو لان الجندي الحقيقي ابعد انسان عن التبجح بنفسهِ والاعجاب باعمالهِ . ولا انكر انني في جميع اخباري قد مدحت نفسي كثيراً ولكنني لم ازِد على حكاية الواقع كما حصل حتى اني لو لم اذكر كل ذلك لكنت مقصراً في وصفِ الحقائق . اما حديثي الذي سأقصهُ عليكم في هذه الليلة ففيهِ دليلٌ من نفسهِ على انهُ يستحق الذكر ووقائعهُ نفسها تشهد بشرف وبسالة الرجل الذي قام بها

لا يخفى انهُ بعد المعارك الروسية عسكرت بقية جنودنا على شاطئ نهر ألبا الغربي. وكانت العساكر تجتهد ان تشرب ما استطاعت من الجعة الالمانية لتملأ الفراغ الذي حدث في اجسامها بين العظم والجلد ولتنسى ما قاستهُ من الاهوال والخسائر لان اكثر الجنود كانوا قد فقدوا من اعضآء اجسامهم ما يملأ عربتين او اكثر . اما انا فكنت اود ان انسى تلك السهول المكسوة بالثلوج البيضآء وعليها بقع حمرآء هي دمآء رفاقنا حتى انني كنت اذا نظرت الى قبعتي الحمرآء اتذكر تلك السهول فيرتعش جسمي لانهُ من الخمس مئة الف مقاتل الذين اجتازوا نهر البا في خريف سنة ١٨١٢ لم يبقَ في ربيع سنة ١٨١٣ سوى اربعين الفاً وكانت هذه البقية نخبة ابطال الجيش واشدهم وهم رجالٌ من الحديد قوتهم الجياد واسرّتهم الثلوج وكل حديث

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

انفسهم الانتقام من الروس وآمالهم معلقة على انتظار الجيش الذي كان الامبراطور يسعى في جمعهِ من فرنسا ليأتي ويساعدهم على الرجوع الى روسيا . اما الفرسان فكانت حالتهم يرثى لها ولا سيما فرقتي الهوسار التي لما عرضتها في بورنا لم املك ان ذرفت دموع الحزن لدى مشاهدتها وقد اصبحت رجالها وجيادها في اسوأ حال . غير انني تعزيت لما رأيت ان تلك الفرقة لا يزال لهـا كولونيلها وفي استطاعتهِ ان يصلح شؤونها . وللحال بذلت جهدي في ترتيبها ولكنني لم اكد اعيدها الى نظامها السابق حتى فاجأني الامر بالعودة الى باريس لتدريب الجنود المتطوعة التي عزم الامبراطور على ارسالها لمساعدة الجيش . ولا انكر انهُ سرني جدًّا ان اعود الى الوطن العزيز فارى والدتي اولاً ثم بعض الفتيات اللواتي كان يسرهنَّ رجوعي فتركت فرقتي وتوجهت الى باريس تاركاً ورآئي الجنود ومستقبلاً امامي تلك الطريق الطويلة في ارض جرداء مقفرة لان الجنود التي مرت فيها ذهاباً وايابًا كانت قد تركتها قاعاً صفصفاً ولو لم اصادف بعض الرعاة يسوقون قطعانهم واستعطفهم لاعطآئي قليلاً من لبن ماشيتهم وشيئاً من زادهم لما بلغت منتصف الطريق حيًّا

ولم ازل سائراً حتى بلغت مدينة ألتنبرج فوجدتُ ان الطريق امامي تفترق الى شعبتين اخترت احداهما فسرت فيها وكنت من حين الى آخر اقف لاتأمل جمال الطبيعة وجودة تلك المناظر الحسنة . ومما زاد سروري انني كنت التقي ببعض افراد الالمان فتظهر عليهم علامات السرور والانعطاف وكرم الضيافة فانهم والحق يقال جنس لطيف في الغاية لاننا مع بقآئنا ست سنوات في بلادهم نتمتع بخيراتها بكل حرية لم تظهر عليهم اقل علامة استياء او نفور وكانت نساؤهم تعاملنا معاملة الزوجات والامهات حتى صرنا ندعو المانيا وطننا الثاني . ولما تقدمت في طريقي رأيت ما يخالف اعتقادي في هذا الجنس لانني قابلت جماعات منهم فرأيت منهم انقباضاً عن مؤانستي وعدم اكتراثٍ بي حتى ان النسآء لم ينظرنَ اليَّ بذلك الطرف الفتان الذي الفتهُ منهنَّ . وبلغت بلدة شمولين على بعد نحو عشرة اميال من ألتنبرج فملت الى فندقٍ لابلَّ شاربيَّ بكأس من الراح واريح جوادي فقابلتني

فتاة قضت طلبي بجفآء . وكان عند باب الفندق جماعة يشربون فرفعت الكأس لاشرب نخبهم فحوّلوا ظهورهم اليّ ورفع احدهم كأسهُ وقال مخاطباً رفاقهُ لنشرب ايها الاخوان بسرّ حرف « ت » فافرغوا جميعهم كؤوسهم ضاحكين مسرورين . فتركتهم وسرت مفكراً فيما رأيت حتى استدعى انتباهي حرف « ت » محفوراً على جذع شجرة على قارعة الطريق فتذكرت انني شاهدت مثلهُ كثيراً في طريقي ولم انتبه الى السبب قبل ان سمعت الفتى يذكرهُ في الفندق . وفي تلك الساعة مرَّ بي فارس عليهِ دلائل الشرف والعظمة فاستوقفتهُ وبعد التحية سألتهُ قائلاً هل يمكنك يا سيدي ان تفيدني معنى حرف « ت » المحفور على هـذه الشجرة . فنظر اليّ شزراً وقال معناهُ انهُ غير حرف « ن » . وقبل ان انطق بكلمةٍ اخرى اعمل في خاصرتي جوادهِ المهماز وتركني حائراً لا ادري ما يعني بكلامهِ حتى حانت مني التفاتة فرأيت حرف « ن » مرسوماً على سرج جوادي ولجامهِ فعلمت ان النون رمزٌ الى نابوليون وان التآء رمزٌ الى اسمٍ يعاكسهُ . وللحال خطر لي ان المانيا التي كنا نظنها نائمة مسرورة باحتلالنا لم تكن الا جباراً يتناوم الى ان تساعدهُ الاقدار على النهوض ثم راجعت في مخيلتي ما لقيتهُ في سفري من انقلاب سحنة اصحابنا وتنكّرهم فتحققت وجود شيء يليق ان اقررهُ متى بلغت باريس وتولدت فيّ الرغبة ان اعود الى مقدمة فرقتي واسير بهـا لتعليم الالمان ما يحاولون ان ينسوهُ من واجبات الضيافة والانقياد لارادة امبراطورنا

و بينما انا اسير الهوينى تارةً واخبُّ طوراً بلغت غابةً كثيفة وقرع اذني صوت مستجير فنظرت بين الادغال فرأيت رجلاً ينظر اليّ وقد احمرَّ وجههُ وجحظت عيناهُ وارتسمت على ملامحهِ علامات الغيظ والحنق فعرفتهُ لاول وهلةٍ انهُ الفارس الذي كلمتهُ عند خروجي من البلدة واجابني باختصار وسبقني بسرعة . فقال لي بصوت منخفض اقترب يا هذا وترجل عن جوادك وتظاهر باصلاح سرجهِ لا كلمك شيئاً ولا تظهر انك تكلمني لان هنا جواسيس لا نأمن ان يكونوا سبباً في هلاكنا نحن الاثنين فانهم ان عرفوا انني اكلمك قتلوني لا محالة . فقلت ولمَ ذلك ومن هم

أولئك الجواسيس . قال هم جمعية التاجنبند وهي جمعية سرية غرضهـا القيام مرةً واحدة في وقتٍ معين لتطردكم من المانيا كما طردكم الروس من روسيا وحرف التآء الذي رأيتهُ رمزٌ الى اسم هذه الجمعية . واني لما قابلتك في البلدة لم استطع ان اطلعك على كل هذا خوف الفضيحة فسبقتك الى هنا حيث يخفيني الغاب عن اعين الرقباء فاطلعك على هذا السر المخيف . قلت انني شاكرٌ لك ايها العزيز ولكنني اعجب كيف تطلعني على اسرار بلادك وانت الماني . قال انني كنت مقاولاً في الجيش الفرنسوي وكل ما املكهُ قد حصلت عليهِ منكم وقد اظهر لي امبراطوركم كل لطف ومعاملة حسنة فلم استطع خيانتكم . والان فاركب وسر عاجلاً لئلا يعلم بنـا احد فيكون الشر على رأسينا جميعاً . فلم أرَ افضل من طاعتهِ فركبت وسرت حائراً وقد هالني ذلك السر وهيئة الرجل الذي كلمني وخوفهُ واحتراسهُ . وكان لا يزال بيني وبين الحدود الفرنسوية اكثر من خمس مئة ميل جعلت اجتازها باحتراس وتأنٍّ مسرعاً في السهول مبطئاً في الغابات والادغال التي يمكن ان يكمن فيها الاعداء وانا اعجب من الالمان الذين لم يكن فيهم الا المؤانسة واللين وهم يخفون تحت ذلك الرماد ناراً ذات ضرام . ووصلت الى منحدرٍ امامهُ هضبة. قد كستها الاشجار العالية فسرت فيها فرأيت تحت شجرةٍ منها شيئاً يلمع فتبينتهُ فاذا هو ردآء ضابط عليهِ الشرائط الذهبية وقد وقعت عليها اشعة الشمس فظهر لها ذلك اللمعان ورأيت الشخص الذي عليهِ ذلك الردآء كانهُ ثملٌ من اهتزاز جسمهِ وعدم ثبوت خطواتهِ وهو يسير الى جهتي وقد امسك باحدى يديهِ منديلاً احمر وضمهُ على عنقهِ تحت اذنهِ . فاستوقفت جوادي هنيهةً وانا انظر اليهِ بازدرآء لانهُ سآءني ان ارى ضابطاً في حالة سكر كهذه في مثل تلك الاحوال ولكنني ما عتمت ان رأيتهُ قد وقف فجأةً وقد رفع ذراعهُ الاخرى الى السمآء علامة الشكر والسرور ثم سقط الى الارض واذ ذاك سقط المنديل عن عنقهِ فرأيت جرحاً كبيراً يتدفق منهُ الدم الاسود . وللحال وثبت اليهِ وقلت لهُ اعذرني يا هـذا فقد ظننتك سكران . فقال بصوت ضعيف لا لست بسكران ولكنني احمد الله لوجود ضابط فرنسوي بالقرب مني قبل

ان افقد قوة النطق . وكنت قد اسندتهُ بذراعي ورفعتهُ قليلاً لاجلسهُ براحة ففلت لهُ من انت ومن فعل بك هذا . قال انا من رجال الحرس الامبراطوري الجديد واسمي المركيز شاتو سنت ارنو وانا احد تسعةٍ من اسرتي سفكت دمآؤهم في خدمة فرنسا وقد تبعني عدد من الالمان ففعلوا بي ما ترى ثم تركوني ظانين انني فقدت الحياة . فزحفت الى ما بين هذه الاشجار وانتظرت مؤملاً ان ارى بعض الجنود الفرنسوية ولما رأيتك لم اعرف أعدوٌّ انت ام صديق ولكنني شعرت باقتراب الموت فعزمت ان اغتنم هذه الفرصة . ثم ظهرت عليهِ علامات الضعف فشجعتهُ بكلامي وقلت لهُ تشدد ايها الصديق فقد رأيت جرحى في حالة اشد خطراً من هذه ولا يزالون احيآء . فقال بصوت ضعيف وقد اخذ يدي فضغط عليها لا لا ايها العزيز انهُ لا امل لي في الحياة لانني شاعر بقرب الاجل ولكن في جيبي اوراقاً يجب ان توصلها سريعاً الى البرنس ساكس فلستين في قلعة هوف فانهُ مع عداوة الاميرة زوجتهِ لنا لا يزال صديقنا الحميم ولكنها لا تنفك تحرضهُ على المجاهرة بعداوتنا وهو اذا فعل تبع مثالهُ عمهُ ملك بروسيا وابن عمهِ ملك باڤاريا. فاذا وصلتهُ هذه الاوراق قبل ان يصمم على شيء بقي على محالفتنا ولذلك يجب ان تسلمها اليهِ الليلة و بذلك تستسلم المانيا باجمعها لامبراطورنا ولو لم يُقتل جوادي لكنت ذهبت بنفسي رغماً عن جراحي و . . . . . ثم تدفق الدم من فيهِ فلم يستطع استتمام كلامهِ فتشنَّج بين يديَّ ثلاثاً ثم همدت حركتهُ وسقط على صدري فاقد الحياة

وكان من نتيجة ذلك ان تغيرت خطة سفري لانني عوضاً عن متابعة سيري الى فرنسا اضطررت ان اقوم بتلك المهمة لايصال الاوراق الى البرنس في تلك الليلة فبحثت في ثوب الماركيز فوجدت في جيبهِ الداخلي اوراقاً مربوطة بخيط حريري وقد كتب عليها اسم البرنس ساكس فلستين بخطٍّ غير واضح عرفتهُ انهُ خط نابوليون . فانتصبت للحال وتركت جثة الماركيز حيث هي وامتطيت صهوة جوادي واعملت في خاصرتيهِ المهماز فاندفع يعدو بي كالنعام الجافل وما سرت قليلاً حتى دوى في اذني طلقان ناريان علمت انهما من رجال الالمان الذين قتلوا الماركيز فلم

اهتم بهم وكان جوادي لا يبالي بالصخور والوهاد التي تعترض سبيلهُ بل يثب فوقها كانهُ طائرٌ لا جواد . اما انا فمع شهرتي باني اقدر خيَّال بين كتائب الفرسان الستة فلم اركب في زماني كما ركبت حينئذٍ . وعند غروب الشمس بلغت بلدة لوبنستين وكان جوادي قد فقد احدى نعالهِ فاضطررت الى دخول فندق واستدعآء بيطار ليركب لهُ غيرها. ولما رأيت ان العمل يستغرق وقتاً قليلاً طلبت من صاحب الفندق فاحضر لي شيئاً من القوت التهمتهُ وانا آسف لذلك التأخير . ولما كان لا يزال بيني و بين قلعة هوف بضعة اميال وثقت من نفسي ان اوصل رسالتي في تلك الليلة وان اقوم في الصباح فاتابع سيري الاول الى فرنسا حاملاً جوابات تلك الاوراق الى الامبراطور . ولكن ابت التقادير الا ان تعكس آمالي وابى الغيب الا ان يخفي لي في فندق لوبنستين شيئاً لم اكن اتوقعهُ قط

قلت لكم انني جلست لتناول الطعام فلم ابلغ نصفهُ حتى سمعت في الخارج جلبةً ظننتها من بعض الرجال وقد سكروا فلم يهمني امرهم ولكنني للحال سمعت صوتاً جعل اتيان جيرار يثب عن كرسيهِ ويسرع الى باب الغرفة لانني سمعت صراخ امرأةٍ تستغيث . ولما فتحت الباب وجدت صاحب الفندق وزوجتهُ والخدم و بعض القرويين قد تألبوا على سيدةٍ لم يرَ جندي قبلي اجمل منها وعلى وجوههم علامات الغيظ والانتقام فلم يقع نظرها عليَّ حتى وثبت نحوي واخذت بيدي وقد تحولت ملامح وجهها الى سرور واستبشار ثم قالت اراني بقرب شهم فرنسوي فانا اذاً في امان . فقلت لها بتبسمي المعهود نعم يا مولاتي انك لفي امان فمري تريني مستعدًّا لخدمتكِ واردفت كلامي بتقبيل يدها اللطيفة . فتبسمت الفتاة وقالت انني بولندية واسمي الكنتة بالوتَّا وهؤلآء يضطهدونني لاني اميل الى الفرنسويين ولا اعلم ماذا كانت عاقبة امري بينهم لو لم ترسلك السمآء لاغاثتي . فقبلت يدها ثانيةً تأكيداً لتأمينها ثم نظرت الى الجمع باحدى نظراتي المعهودة فجعلوا يخرجون من الغرفة واحدٌ بعد واحد حتى بقينا وحدنا فقلت لها انكِ الآن يا سيدتي في عهدتي واراكِ ضعيفةً بعد ما حصل فلا اشك في ان كأساً من الخمر تردّ اليكِ قواكِ . ثم ادخلتها

الى غرفتي واجلستها بجانبي لا تناول بقية طعامي وقدمت لها كأساً من الخمر فلم ترفضها . وظهرت امامي كزهرة نضرة فلم اعد استطيع تحويل نظري عنها وقرأت في وجهها اعجابها بي ايضاً لان النسآء اذا رأينَ جمال الفتى مقروناً بشجاعتهِ لا يتمالكنَ ان يحببنهُ . اما حديثها فلم يكن اعذب منهُ وهي تقص عليَّ سيرتها فاعلمتني انها مسافرة الى بولندا مع اخيها وانهُ مرض في الطريق فتركتهُ في مستشفى وانها قاست كثيراً من المشقات في سفرها لمجرد ميلها الى الفرنسويين . ثم انتقلت في حديثها الى سوءالي عن الجيش وعن نفسي وعن سبب مروري من تلك الناحية ولما ذكرت لها اسمي اخبرتني انها سمعت بي وطلبت مني ان اقص عليها بعض حوادثي التي يتحدث بها القوم وانها تود ان تسمعها من فمي مع انها سمعتها قبلاً تُروَى في الفنادق والمنازل . وهكذا اسكرتني بلطفها حتى غرقت معها في الحديث ومرت علينا اربع ساعات قبل ان اتذكر مهمتي وما يطلب مني القيام بهِ . واذ ذاك وثبت كالمأخوذ وقلت اعذريني يا مولاتي لانهُ يجب عليَّ ان اسير في هذه الدقيقة الى قلعة هوف. فنظرت اليَّ بوجهٍ حزين وقالت وماذا يحل بي اذا ذهبت . قلت انني اسير بامر الامبراطور ولا يمكنني مخالفتهُ . قالت تسير وتتركني الى هؤلآء القتلة فلماذا قلت انك تحميني ثم اجهشت بالبكآء . وكانت تلك الدقيقة اعظم تجربة لي ولكنني تغلبت عليها ثم رأيتها كمن يغمى عليها وقد طلبت جرعة مآء فاسندتها الى الكرسي وذهبت مسرعاً لآتيها بالمآء فمضت بضع دقائق قبل ان اهتدي اليهِ ولما عدت الى الغرفة وجدتها خالية ولا اثر للفتاة فيها فكدت افقد عقلي . ثم ناديت صاحب الفندق فسألتهُ عنها فقال انهُ لم يرَها . فخرجت الى الشارع وسألت الخدم والمارّة فلم احصل على فائدة . ثم انتبهت الى ان صدر ثوبي مفتوح فوضعت يدي ولسوء الحظ وجدت ان رسالة الامبراطور التي كنت قد خبأتها هناك مفقودة ايضاً فعلمت للحال ان تلك الماكرة تظاهرت بجميع ما رويتهُ حتى تغامت واخذت الرسالة من صدري بدون ان اشعر بها . فحرت في امري وقلت ما عسى ان يقول الامبراطور متى علم بانني اضعت رسالتهُ وهل يصدق الجيش كلهُ ان اتيان جيرار تمكر بهِ فتاة .

واثرت فيَّ هذه الافكار حتى كدت اعدم رشدي ثم راجعت كل ما جرى فتأكدلي ان ما كان من الضوضآء وظهور الفتاة لم يكن الا تمثيل رواية متفق عليها لسلب الرسالة مني وللحال امتشقت حسامي وقصدت صاحب الفندق ليطلعني على سر الفتاة ولكن اللعين كان قد عرف قصدي فدخل غرفتهُ واقفل الباب . ولما اقتربت منهُ ناداني قائلاً انجُ بحياتك يا هذا فان جوادك ينتظرك امام الباب واذا اصررت على الدخول ففي يدي غدارة افرغ رصاصتها في صدرك . ولم اكن لاخاف تهديدهُ ولكنني علمت ان لا فائدة منهُ وللحال اعملت الفكرة فقلت اني وان اكن قد فقدت الرسالة فلا اسهل من ابلاغها شفاهاً للبرنس وكنت قد عرفت فحواها من قرائن الاحوال فركبت جوادي وسرت قاصداً هوف

وعند منتصف الليل بلغت المدينة وكانت لا تزال انوارها ساطعة ورأيت من حركة القوم انهم في شغل شاغل يموجون ويتحادثون كانهم ينوون القيام بامرٍ ذي بال . وكنت امر على جماعات ينظرون اليَّ نظر الانتقام والكراهة حتى ان بعضهم رماني بحجرٍ مرّ بقرب رأسي ولو اصابهُ لكان اردائي . فلم اهتمّ بشيء من ذلك ولم ازل اجد السير حتى بلغت قلعة البرنس فترجلت امام بابها وسلمت جوادي لخادم ثم قلت للخادم بلهجة السفير الآمر انني اروم مقابلة البرنس في الحال لامرٍ لا يمكن تأخيرهُ . وسمعت داخل القلعة جلبةً شديدة سكنت عند ابلاغ البواب رسالتي فعلمت ان في القلعة اجتماعاً يقرر فيهِ المجتمعون الحرب او الصلح ورجوت ان اكون قد وصلت قبل ان يكون البرنس قد انحرف عن مصافاة فرنسا . وبعد قليل عاد البواب فقال ان البرنس لا تمكنهُ مقابلتي ولكن البرنسة نفسها يمكنها ان تتلقى مني الرسالة . اما انا فلم يسرّني هذا الجواب لان المركيز اعلمني قبل موتهِ ان البرنسة المانية قلباً وقالباً وانها هي التي تحرض زوجها على معاداتنا فقلت لهُ ان رسالتي تختص بالبرنس دون غيرهِ فلا بد لي من مواجهتهِ بنفسهِ . وقبل ان يجيبني الخادم سمعت صوت سيدة تقول كلا ثم دخلت السيدة يخفرها رجل حتى وقفت امامي وقالت ما هي الرسالة التي تود ايصالها الى البرنس او الى البرنسة ساكس فلستين . فلما سمعت

الصوت ارتعش جسمي ولما رأيت وجهها صعد الدم الى رأسي لانني عرفتها انها هي نفس تلك الماكرة التي سرقت مني الرسالة . ولما لم اجبها رفست الارض برجلها وقالت ان الوقت ثمين يا هذا فما هي رسالتك. قلت ماذا اقول وقد علمتِني ان لا اثق بامرأة بعد فقد قطعتِ حبل آمالي في المستقبل وافقدتِني شرفي . فنظرت الى الرجل الذي معها باستغراب وقالت هل هذا الرجل في حلم ام هو معتوه يتكلم بما لانفهمهُ . قلت انكِ ماهرة في التمثيل يا سيدتي وقد اريتِني مهارتكِ في اول هذا الليل ولكنكِ لن تهزئي بي مرتين في ليلة واحدة . فنظرت الى الرجل وقالت لهُ ان هذا السفير وقح على ما يظهر فنادِ الحرس ليخرجوهُ خارج القلعة . ولكنها لم تعلم ما هو جيرار وانهُ لا يقع مرتين في احبولة امرأة فقبل ان تتم امرها وثبت وثبة واحدة اوصلتني الى خارج الغرفة واسرعت الى ردهة الاجتماع مستدلاً عليها بصوت الجلبة حتى بلغت بابها فرأيت في صدر الردهة عرشاً مرتفعاً عليهِ فتىً جميل الطلعة وحولهُ كراسي قد جلس عليها مقدّمو المجتمعين والاعضآء الباقون متفرقون في جوانب الردهة . فلم اقف حتى صرت في وسطهم وصحت قائلاً انني رسول الامبرطور انقل رسالة للبرنس ساكس فلستين . فرفع البرنس رأسهُ ونظر اليّ ثم قال ما اسمك ايها الرسول . قلت الكولونيل اتيان جيرار من فرقة الهوسار الثالثة . فشعرت بحركة في كل الردهة ورأيت الجميع ينظرون اليّ فلم ارَ بين جميعهم نظرة صديق ولكنني لم اهتم بذلك فانتصبت كنخلة بين الاعشاب . فقال البرنس ان كتاب الامبراطور الخصوصي افادني ان رسالتهُ قد وُجهت اليّ مع المركيز شاتو سنت ارنو لا معك . قلت نعم يا مولاي ولكن المركيز قتل في قدومهِ الى بلاط سموكم . قل واين هي اوراقك . قلت ليس معي اوراق . وللحال ارتفع صراخ الحاضرين وجلبتهم فمن قائل ان هذا لجاسوس ومن قائلٍ اقتلوهُ وقائلٍ اشنقوهُ فرفع البرنس يدهُ فسكت الجميع و بقيت انا على ما كنت عليهِ من الهدو والسكينة . ثم قال فما هي رسالتك اذاً . قلت انها تختص بسماع سموكم فقط . فوضع يدهُ على جبهتهِ كرجل ضعيف ليس قيادهُ بيدهِ وهو لا يدري ماذا يجب ان يفعل وكانت البرنسة قد دخلت

الردهة من بابٍ آخر وصارت بالقرب منهُ فاسرَّت اليهِ كلاماً فقال انني مع رجالي في مشورة ولا اخفي عنهم سرًّا فمهما تكن رسالة الامبراطور فانهـا تهمهم كما تهمني فضج الحاضرون بالاستحسان وشعرت ان موقفي حرج فعزمت ان اتكلم مهما كانت النتيجة . فقلت انك طالما اظهرت الميل الى مولاي الامبراطور يا سيدي البرنس وقد ازف وقت امتحان صداقتك لهُ فاذا ثبتَّ فانهُ يكافئك لانهُ سهلٌ عليهِ ان يجعل البرنس ملكاً والامارة مملكة وقد وجَّه مولاي الامبراطور نظرهُ اليك فمع انك لا تستطيع ان تساعدهُ بالقوة فانك تجني على نفسك اذا قاومتهُ لانهُ الآن يجتاز نهر الرين بمئة الف مقاتل وكل معقل في بلادكم قد اصبح تحت حكمهِ وسيصل الى هنا بعد اسبوع. فاذا ختتموهُ فالويل لكم واذا كنتم تظنون انهُ قد فقد شيئاً من قوتهِ ومجدهِ فانتم مخطئون لان نجم سعدهِ لا يزال يتألق في كبد سمآء حياتهِ ولا يغيب حتى تنحلَّ العناصر

ولو سمعتموني ايها الاصحاب ورأيتموني في ذلك الموقف لكنتم بدون شك تعجبون بجيرار بل لو كان الامبراطور نفسهُ يراقبني من ورآء ستار لمـا تمالك ان يصيح احسنت يا جيرار احسنت يا جيرار

اما البرنس فاطرق بعينيهِ كانهُ تتنازعهُ عوامل لا يقوى على ادراكهـا ثم قال بصوت ضعيف قد سمعنا فرنسوياً يتكلم عن فرنسا فهل بين الحاضرين الماني يتكلم بالنيابة عن المـانيا . فتبادل السامعون النظرات وتهامس اكثرهم فعلمت ان كلماتي كانت قد اثرت فيهم.ولم يشأ احدهم ان يبدأ باعلان العداوة لامبراطورنا الا البرنسة فانها التفتت الى ما حولها ثم ثبتت نظرها في الحاضرين وقالت هل تنتظرون امرأة لتجاوب هذا الفرنسوي على كلامهِ أَوَلا يوجد بينكم ايها الشجعان من يبرهن انهُ يستطيع تحريك لسانهِ كما يحرك سيفهُ . ولم تكد تتمّ كلامها حتى رأيت فتى ضئيل الجسم اصفر اللون نحيف الوجه قد نهض فوقف على كرسيهِ فساد السكون وسمعت بعضهم يقول قد نهض كورنر الشاعر فاسمعوهُ . فبدأ الفتى بالانشاد بصوتٍ رخيم ولكنهُ حماسي فعدد اوصاف جرمانيا ام الممالك ذات السهول الخصيبة والابطال

الشجعان ثم انتقل الى وصف حالتها وقد أُخذت غدراً حين لم تكن مستعدة لمقاومة نابوليون. ثم قال اما الآن فانها تتمطى في وثاقها وتحل عنها تلك القيود وتنادي بنيها ليصونوا شرفها و يعيدوا عزها فهل يسمعون ندآءها وهل يلبون الطلب

وكان نشيد الرجل كانهُ مجرى كهربآئي سرى في عروق السامعين فابرقت اسرتهم وصاحوا صياح الفرح ولم يبقَ منهم من لم يثب عن كرسيهِ وقد استل حسامهُ حتى ان البرنس نفسهُ اشرق وجههُ فنظر اليَّ وقال قد سمعت يا كولونيل جيرار الجواب فارجو منك ان تنقلهُ الى امبراطورك . ثم نظر الى رجالهِ وقال ايها الاعزآء قدصممنا على هذا الرأي فاما ان نفوز معاً او نهلك. ولما قال ذلك انحنى صارفاً الجلسة فجرى الجميع يتسابقون للخروج لكي يذيعوا تلك البشرى بين مواطنيهم

اما انا فعلمت انهُ لم يبقَ لي حاجة بالمكث ووددت الخروج لاعود بالجواب وقد كرهت هوف والنظر اليها فحنيت رأسي وسرت الى الجهة التي ربطوا فيها جوادي. وكان المكان مظلماً فمشيت بتمهل واذا بي قد شعرت بايدٍ غلت يديَّ الى عنقي وشعرت بحديد غدارة تحت اذني وسمعت صوتاً يقول اياك ان تبدي اقل حركة ايها الكلب الفرنسوي . ثم اخذ احدهم لجام جوادي فربطهُ حول عنقي بعنف وقادوني صاغراً وسمعت رئيسهم يقول لنشنقهُ حالاً . فقال آخر ولكنهُ سفير يا مولاي. قال سفير بدون اوراق فهو جاسوس . قال ولكنك اذا قتلتهُ لم نأمن ان يؤثر عملك على افكار البرنس لانك تعلم انهُ سريع الانقلاب . ولما قال هذا استلّ سيفهُ فقطع رباط عنقي ونادى رفاقهُ قائلاً ايها الاخوان انهُ من العار علينا ان نتحامل على رجلٍ وحيد بيننا لا يستطيع المدافعة . واذ ذاك سمعنا صوت آخر يقول مهلاً فقد جآءت البرنسة فنظرت فرأيتها بجمالها الرائع ومع كراهتي الشديدة لها وحنقي عليها لم املك ان اعجب بطلعتها الفتانة التي لا تمحى من ذاكرة جيرار . فاقتربت اليَّ وجعلت تحل قيودي بيدها وهي تقول يا للعار انكم تجاهدون في سبيل العدالة وتبدأون بمثل هذه الفعلة الشنعآء . فاعلموا ان هذا الرجل لي ومن مس شعرةَ من رأسهِ يحاسبني عليها بحياتهِ . فلما سمعوا كلامها ابتعدوا عنا فنظرت اليَّ

وقالت اتبعني يا كولونيل فلي كلام اقولهُ لك . فتبعتها كمن لا يدري ماذا يفعل حتى بلغنا الغرفة التي قابلتها فيها اولاً فاقفلت بابها وقالت انك ترى الآن امامك البرنسة ساكس فلستين كما رأيت في اول الليل الكنتة بالوتا البولندية . قلت لا تهمني تلك لانني انما ساعدت امرأة ضعيفة كنت اظنها في ضيق فسرقت اوراقي وهدمت شرفي كانها تكافئني بذلك . قالت اعلم يا كولونيل انني كنت واياك جوادَي رهان وقد اعانتني التقادير فسبقت وانت تعلم انهُ عند ادراك الغاية لا يبالى بالواسطة مهما كانت سرقةً اوكذباً . اما الآن وقد انتهى الشوط فلا ينبغي ان يوجد بيننا اقل حقد . واعلم انني لو وقعت في ضيق حقيقي لما اخترت سواك منقذاً وحامياً ولم اكن اظن قط انني اعتقد مثل ذلك في رجل فرنسوي قبلك . اما سرقتي الاوراق فقد كانت مما لا بد منهُ لاني اعرف قوة كلام كاتبها وضعف ارادة زوجي فلو وصلت اليهِ لما صمم على رايهِ الاخير قط . قلت ولمَ عرَّضتِ نفسكِ لفعل ذلك وقد كان في امكانكِ ان تأمري بعض رجالكِ بمقابلتي وقتلي كما قتلوا المركيز . قالت كانت رجالي منبثةً في جميع النواحي لهذه الغاية وكنت انتظرهم في مدينة لو بنستين فلما بلغتها انت علمت انك نجوت منهم ففعلت ما لم يبقَ لي سواهُ لافعلهُ . قلت انني اعجب بمهارتكِ يا مولاتي واقرّ بانني غُلبت فلم يبقَ عليّ الا ان استأذن وانصرف . قالت وخذ اوراقك فانهُ لم يبقَ لي بها حاجة فان البرنس قد سار برجالهِ الى حيث لا تدركهُ بعد فارجع الى امبراطورك وقل لهُ انهُ لم يشأ قبول الرسالة فلا يشكوك بفقدها احد . فاستودعك الله يا حضرة الكولونيل وانصح لك اذا بلغت فرنسا ان تبقى فيها لانهُ بعد سنة لا يبقى فرنسويٌّ في هذه الجهة من نهر الرين

وهكذا انقضت مهمتي لدى البرنسة ساكس فلستين فخرجت وانا افكر فيما جرى وكنت كل هنيهةٍ اتصور امامي ذلك الوجه اللطيف وقد عجبت من اعتصاب الالمان وقلت لا ريب ان هذه البلاد لا تغلب . وكان قد لاح الفجر فرأيت النجم الذي كان يدعوهُ نابوليون نجمهُ الخاص قد بدأ بالذبول واخذ يفقد من بهآئهِ ولمعانهِ